كتب وشخصيات

٤ — الصديقة بنت الصريق ... للعقاد

للأســـتاذ سيد قطب

مدرسة العقـــاد

فى الأدب والحياة

كل ما قلته عن « حدود المدرسة الأدبية » فى كلمة سابقة من هذه الـكلمات ، يمكن تطبيقه بلا تحفظ على «مدرسة العقاد» ؛ فهى مدرسة فى الأدب كما أنها مدرسة فى الحياة ، يلتقى منها تلاميذها على سَنَن واضح ونهج صريح ، ويجدون فيها تفسيراً معيناً للحياة والفنون ، يشتمل نوع الإحساس ولون التفـكير ، وطريقة التعبير ، بل يشتمل فوق ذلك قواعد المنطق والسـلوك ، وتقويم الأشياء والأشخاص ، وتقدير الحوادث والأعمال !

وهى مدرسة متبلورة ، واضحة السمات ، لا يجد الناقد مشقة ولا عسراً فى اختيار عنوان لها ، يمثل ويلخص أكبر ما تستطيع العنوانات تمثيله وتلخيصه

هى مدرسة « المنطق الحيوى »

والنسبة هنا إلى « الحياة » وإلى « الحيوية » جميعاً ... إلى « الحياة » لأن مرد الحـكم على كل قول وكل عمل هو ما تقوله الحياة وما تصنعه ، ومنطقها هو المنطق المطاع فى جميع الأحوال . كل ما تصنع الحياة يُرجَّى من بنيها قبـوله واغتفاره فإذا أنـكروا قبيحاً ، ففى القبـ ـح من الموت لونه أو شعاره

وإلى « الحيوية » لأن مرد الحـكم على كل قول وكل عمل هو باعثه ، ومدى الحيوية فى هذا الباعث . وقد تتشابه مظاهر الأقوال والأعمال ولـكنها تتفق فى « الرصيد » المـكنون لهـا من الباعث الحيوى ليتوحد الحـكم عليها ، وقد تتفق مظاهرها ولـكنها تختلف فى الرصيد فيكون ذلك مناط الاختلاف

أستاذ هذه المدرسة الأعظم هو الحياة ذاتها ، لا الفـكر المجرد ، ولا المنطق الذهنى ، ولا مواضعات المجتمع الاصطلاحية ، ولا قواعد الخلق المتعارفة ، ولا المذاهب الفنية المعنونة ... إنها ترجع إلى النبع الأول تستقى منه ، وإلى الناموس الخالد تتوخاه ، ترجع إلى الحياة الطبيعية فتتلقى عنها مؤثرات الإحساس ، وقواعد المنطق ، وطرائق التعبير ، كما تتلقى أصول السلوك ونواميس الآداب وقوانين الأخلاق سواء بسواء

ولـكن عدداً من المدارس يمكن أن يتتلمذ على الحياة ثم يختلف فى مناهج الدراسة . وهنا تسعفنا نسبة المدرسة العقادية إلى « الحيوية » فى تحديد المنهاج . فالحيوية الفائضة المتدفقة ، الحيوية الظاهرة والباطنة ، حيوية الحس والوجدان ، حيوية الطبع التى تفيض على الحواس والذهن والضمير فى آن ... هى السمة التى تعجب بها مدرسة العقاد ، والتى تصدر عنها فى السلوك والاعتقاد ، وفى الفنون والآداب

ولما كانت الحياة هى الأستاذ الأعظم للمدرسة ، فلا عجب أن يكون طابعها هو الاستقلال فى التلقى عن هذا الأستاذ — فى حدود السمات العامة لها — وأن يكون عمل العقاد فيها هو عمل الرائد الذى يكشف النبع ، ويعهد إليه الطريق . وهناك يلتقى تلاميذه ومريدوه — وهو معهم — بين يدى الأستاذ الأعظم . وفضله عليهم هو فضل السبق والإجادة ، وعملهم معه هو عمل المتذوق الفاهم المريد ، لا عمل المقلد الناقل المقود . فليس بتلميذ أصيل فى مدرسة العقاد من يغفل عن نفسه ليقلده ، ومن يسلك طريقه ولا يستمد من النبع الخالد معه ، لأنه إنما يضيع فى هـذا السلوك سمة المدرسة الأصيلة ، وهى سمة الاستقلال فى الأخذ المباشر عن الحياة .

* * *

والعقاد — رائد هذه المدرسة — هو ابن الحياة البار ابن هذه الحياة القائمة على هذا الكوكب ، لا أية حياة أخرى فى أى كوكب آخر ، هذه الحياة بقيودها وضروراتها ، وبآمالها وأشواقها . الحياة الظاهرة للحس واللمس ، والمكنونة فى القلب

والضمير . وهو — قبل كل شيء — إنسان حي ، ملء إهابه حياة ، بل هو رسول من رسل الحياة المفوضين ، وداعية من دعاتها المخلصين

وما عن ضيق فى آفاق النفس والحس تستغرق الحياة حس العقاد ونفسه ، ولكن عن سعة وضخامة فى هذه الحياة تستغرق الحس والشعور

يا طالباً فوق الحياة مدًى له يسمو عليها ، هل بلغت مداها
ما فى خيالك صورة تشتاقها إلا وحولك لو نظرت تراها

على أننا لا نعتمد فى تقرير هذه الحقيقة على ما يقول ، فقد يستوحى الأديب قراءاته أو أفكاره ثم يقول ! ولكننا نعتمد على الإنسان الحى فى العقاد ، وعلى سلوكه فى حياته الشخصية والسياسية والفنية ، وعلى انتباهه الحاد لكل نبضة حية فى نفوس الآخرين وسلوكهم ، ولكل التفاتة منهم إلى الحيوية النابضة فى الكون والحياة . وذلك هو البرهان الحي الصحيح فى فهم الطبائع والخصائص والاتجاهات .

وأدوات الاتصال بالحياة عند العقاد هى حواس يقظة متفتحة ، تؤدى إلى حس متوفر مكتمل ، يفضى إلى وجدان زاخر عميق ، ولهذه الأدوات كلها مدد من بداهة الطبع ووميضات الفكر ، وسبحات الروح ، فى توازن وانسجام . وإن الاتصال بينه وبين الحياة ليتم تارة من الخارج إلى الداخل ، وتارة من الداخل إلى الخارج (إذا لم يكن بد من هذا التجسيم) ... حاسة توقظ حساً فيذكو ويتوهج ، وحس يثير وجداناً فيشع ويفيض . أو وجدان ينفعل ليوقظ الحس فيفتح الحواس . وهذا وذلك على حسب الحالات النفسية وعلى حسب المؤثرات المختلفة . وإن المنافذ لمفتوحة علواً وسفلا ، بل لا علو ولا سفل ، إنما هى قوة واحدة متعددة المنافذ مشتبكة المسالك ، متصلة بالحياة ، تلتقى فيها الأرض بالسماء ، بل لا أرض هناك ولا سماء ، إنما هو عالم واحد والروح والمادة مظهران لحياة واحدة و « الدنيا جمال نصل إليه من طريق الضرورة ، وروح نلمسها بيد من المادة »

وهذا العالم الواحد هو الذى ندرك الظاهر منه بالحس والحواس ، وندرك المكنون منه بالبداهة والوجدان ، أو ندركه ظاهراً وباطناً فى لمحة واحدة بجميع هذه الأدوات ؛ فما ظاهره إلا رمز لمكنونه . وقيمة هذا الظاهر مستمدة مما يرمز إليه من مكنون . وكلاهما حق وصدق لأنهما شيء واحد فى النهاية !

قالوا الحياة قشـــور قلنـــا فأين الصميم
إن الحيـاة حيـاة ففارقوا أو أقيمـــوا

ولقد كان العقاد — بما فيه من يقظة الحس وقوة الحواس — وشيكا أن يبذل إعجابه كله للحياة المحسوسة الظاهرة وللحيوية المتدفقة فى الحس والغريزة ، لولا قسط من « الصوفية » — ولا يعجب أحد لهذه الكلمة — فى العقاد إيمان عميق بقوة مجهولة تصرف الحياة وتسيطر على أقدار الفرد والنوع (والصوفية فى أسلمها البسيط هى هذا الإيمان بالمجهول) . ولكن هذه القوة المجهولة التى يؤمن بها العقاد إنما تصرف الحياة وتسيطر على أقدار الفرد والنوع ، لمصلحة هذه الحياة نفسها وللرقى بالإنسانية فى معارج الكمال ، لا لغرض آخر من الأغراض التائهة المجهولة !

هذا القسط من الصوفية — بهذا المعنى — يمتزج بالحيوية الحسية ، فيخرج منهما مزاج جديد فيه من هذه وفيه من تلك على غير تحيز بينهما ولا انفصال

ولقد كان العقاد كذلك — بما فيه من صحو الذهن ، ويقظة الوعى وشيكا أن يبذل قواه كلها للفكر والمنطق ، لولا فيض من حيوية الطبع يجرف قوى الذهن والوعى لتستحيل جنوداً لهذا الطبع الحي ، تضرب بسلاحه ، وتستمد منه القوة وله عليها السيطرة فى النهاية !

وكثير من الفنانين يقوم فى نفوسهم صراع بين مثلهم العليا وبين سلوكهم فى الحياة . بين ما يصطرع فى كيانهم من غرائز يستقذرونها وما يخلق فى أرواحهم من أشواق يهفون إليها ؛ فأما العقاد فقد عقد صلحاً مبكراً بين غرائزه ووجداناته فهو لا يفعل ما يستقذره ولا يستقذر ما يفعله ، وبين ذلك قوام !

وللحيوية عند العقاد شفاعتها الحاضرة فيما تأخذ وما تدع

من الأمور ... أأقول شفاعتها ؟ ألا إنهـا ليست فى حاجة إلى الشفاعة ؛ فهى نفسها الشفيع الذى لا يرد له كلام ، والمقوض الذى لا يسأل حتى عن أوراق الاعتماد ! وليست هى إذن فى حاجة إلى الشفاعة والاعتذار بقـدر حاجتها إلى الثناء والإطراء . وهكذا يعجب بمحمد فى الأنبياء ، وعمر وأبى بكر والإمام فى الخلفاء ، وبالصديقة بنت الصديق فى النساء ، كما يعجب بالمتنبي وابن الرومى فى الشعراء ، وبنيتشه وجيته فى الأدباء ، وبسعد ومصطفى كمال فى الزعماء ... وهؤلاء وأولئك وسواهم ممن نالوا إعجابه ، إنما يلتقون أولاً فى صفة الحيوية ، ثم يختلفون فى مدى هذه الحيوية ونوعها ، وفى اتجاهها ومظاهرها كل حسب وظيفته فى الحياة

وإن إعجاب العقاد بالحيوية ليطرد فتنشأ عنه آراؤه فى الحياة والأخلاق ، وفى الانفعال والسلوك ، وفى الأحداث والأشخاص ، وفى الفن والنقد . وما من رأى له فى المدارس الأدبية وفى طرائق الأدباء ، وفى الفن والسياسة وفى الارتياء والاعتقاد ، يبهم أو يستغلق إذا عالجه الناقد بهذا المفتاح !

أعمال العقاد الفنية لتؤلف جميعها نشيداً واحداً مطرداً فى تمجيد الحيوية بكل معانيها وأشكالها ، منذ الجزء الأول من ديوانه إلى الجزء الأخير ، ومنذ « خلاصته اليومية والفصول » حوالى سنة ١٩١٤ إلى مؤلفاته الأخيرة سنة ١٩٤٤ . وتلك علامة الصدق بلا جدال

وإنه ليسير فى فلسفته الموحدة ، فى طريقه المستقلة ، فيلتقى بالكثير من الأدباء والفلاسفة والمفكرين فى الشرق والغرب ، ولكنه لا يساير أحداً منهم إلا إلى الحد الذى يتفق مع فلسفته الخاصة ، ثم يفترقان فيمضى هو على نهجه بطريقته ، ويدع صاحبه يمضى لطيته ، فى سلام أو فى خصام ! وهنا يقول من لا يلتفتون لغير الظواهر : إنه يأخذ من هذا أو من ذاك على معنى غير معنى الدراسة والالتقاء

ولا بد قبل أن نختم هذه الكلمة أن نلاحظ بحق سمة فى النفس والفكر تجعل هذا الرجل ذا الشخصية الواضحة والفلسفة الخاصة يستمع ويهش ويتجاوب مع جمع حاشد من أنماط الشخصيات والفلسفات

من المعرى الذى يقول :

تسريح كفك برغوثاً ظفرت به
أبر من درهم تعطيه محتاجاً

إلى المتنبى الذى يقول :

ومن عرف الأيام معرفتى بها وبالناس روّى رمحه غير راحم

ومن ماكس نوردو إلى شوبنهور ، ومن تاجور إلى نيتشه ، ومن جيتى إلى توماس هاردى ، ومن خالد بن الوليد إلى عمرو ابن العاص ، ومن مصطفى كمال إلى غاندي ، ومن عمر بن أبى ربيعة إلى جميل بثينه ... إلى آخر هذه الشخصيات التى لا تقل الفوارق بين كل اثنتين منها وبين كل واحدة منها والأخرى عن الفوارق بين المعرى والمتنبى فى شتى الاتجاهات

ولا بد أن نلاحظ بحق كذلك تلك المقدرة التى تقيم عظمة أبى بكر أمام عظمة عمر النديين المتقابلين فى نوع العظمة ، والتى تفسر تصرف عمر مع خالد ، وتصرف عائشة مع على ، والتى تنصف الإمام من الصديقة ، وتنصف الصديقة من الإمام

وليس هذا عن منطق لبق ، ولا عن مهارة ذهنية ، إنما هى سمة فى النفس ، ورحابة فى الفكر ، وانفساح فى الإحساس ، لرؤية جميع الجوانب ، وتحليل وجهات النظر ، وتفهم جميع النزعات

هذا ولم يتسع المجال لأن نذكر شيئاً عن خصائص العقاد الفكرية ، خصائص التحليل والتعليل ، تلك التى تطرد فى كل ما يكتب ، وإن كان اعتماده الأكبر فى التعليل والتحليل على المنطق الحيوى لا المنطق الذهنى . وخلاصة ما يقال فى دراساته التحليلية أن « برهانه الفصل تابع لاعتقاده المجمل ، وليس اعتقاده تابعاً لبرهانه فى كل حين ، كما يقول هو فى إحدى مقالاته عن نموذج من الناس يستحسنه ويؤمن على طريقته فى الاستدلال

ولم نجل كذلك طريقته فى العرض ، وأسلوبه فى التعبير ، ولعل القارئ يجد شيئاً من هذا فيما كتبناه عند الموازنة بينه وبين المازنى ، وفيما كتبناه فى العام الماضي عن « عبقرية محمد » وهى نموذج كامل لدراسة الشخصيات .

* * *